المحاضرة الثانية: المجتمع والثقافة (العمليات السوسيوثقافية)

عناصر المحاضرة:

1- التفاعل الاجتماعي أساس العمليات الاجتماعية والثقافية

2- العمليات الاجتماعية– الثقافية الرئيسية

2-1- التنشئة الاجتماعية

2-1-1- خصائص التنشئة الاجتماعية

مؤسسات التنشئة الاجتماعية

2-2- العمليات المعارضة

2-3- عمليات التعاون

2-3-1- التعاون

2-3-2- عمليات التمايز

تمهيد:

تؤلف الجماعات الاجتماعية المتماسكة والمتضامنة، بناء اجتماعيا كبيرا يعرف بالمجتمع، تمارس الجماعات داخله مختلف عاداتها وتقاليدها وأعرافها الاجتماعية، في حدود ما يسمح به تراثها الثقافي المتناقل جيلا عن جيل، مما يفضي إلى تكوين نمط ثقافي خاص بالجماعة الاجتماعية أو المجتمع بشكل عام. ضمن هذه المحاضرة سنتناول أهم العمليات الاجتماعية والثقافية، التي تؤمن بقاء واستمرار المجتمع والحياة الاجتماعية فيه، وكذا أساس كل تلك العمليات، والمتمثل في التفاعل الاجتماعي بنوعيه المباشر والرمزي.

1- التفاعل الاجتماعي أساس العمليات الاجتماعية والثقافية:

يمثل **التفاعل الاجتماعي Interaction** الصلة التي تنشأ بين فردين أو أكثر، أو بين جماعتين اجتماعيتين أو أكثر، بحيث أن فاعلية كل منهما تحددها جزئيا فاعلية الآخر/ أو الأخرى (بدوي، 1982، صفحة 222)، ولذلك يصطلح البعض على هذه العملية بـــ**التفاعل المتبادل**. بمعنى أنه عندما يثير الفرد (أ) الفرد (ب) فهذا لا يعني تماما أن الفرد (أ) وحده من يثير ويؤثر في فكر ومشاعر الفرد (ب) وإنما يؤثر كذلك الفرد (ب) في فكر ومشاعر الفرد (أ)، فالتفاعل إذن هو فعل مشترك بين الأفراد. وحينما يشترك الأفراد في الأهداف والأفعال، فإنه يمكن اعتبارهم جماعة أكثر من كونهم أفرادا.

ولا شك أن **التفاعل** هو العامل الرئيسي في كل أشكال الحياة الاجتماعية، ومن ثم فإن هذا المصطلح يعد محورا مهما لأي دراسة حول ديناميات المجتمع وثقافته. أكثر من هذا، فإن تكرار أشكال معينة من التفاعل يساعد على تشكيل قاعدة واحدة للاستمرارية والنظام في العالم الاجتماعي– الثقافي.

ولعل من أهم العمليات التي يجب الإشارة إليها هنا هي: **المعارضة Opposition**، **التعاون Co-operation**، **التمايز Differentiation** في الدور والمكانة، بالإضافة إلى عمليات أخرى متصلة بنقل وتراكم الثقافة.

يصنف التفاعل الاجتماعي إلى شكلين أساسيين، أحدهما **مباشر Direct**، والآخر **رمزي Symbolic**. يشمل النوع الأول كل أشكال النشاط التي تتضمن حركة في مكان الفرد، ويمكن أن يلاحظ هذا النوع من التفاعل في سلوكيات: الدفع، العراك، الخدش، الضرب، أو في الجهود المتصلة لإنهاء عمل أو إنهاء بعض الأعمال الترفيهية، أو في أي شكل من أشكال الاتصال الجسدي بما في ذلك الاتصال الجنسي. أما النوع الثاني وهو ما يعرف بالتفاعل الرمزي، فيتكون من أصوات أو إشارات أو لغة سواء كانت مكتوبة أو شفهية (منطوقة).

والرمز هو تمثيل لموضوع نوع أو فعل أو صفة أو علاقة معينة، ويعبر الرمز من ناحية أخرى عن بعض الاستجابات الواضحة سواء كانت ضمنية أو متوقعة. **مثال:** تتخذ كل المجتمعات والشعوب من طير **الحمام** رمزا للسلام، تتخذ العلامة التجارية العالمية **La Coste** حيوان **التمساح** رمزا لها، ♀ يستخدم هذا الرمز لدى علماء البيولوجيا للإشارة إلى نوع الأنثى (دلالة جنسية).. إلخ.

وفي عالمنا المعاصر، يأخذ الاتصال بين الأفراد والجماعات شكلا مختلفا، وذلك لاعتماده على وسيط، كأن يكون جهاز تلفزيون أو أحد الوسائط الإلكترونية التالية: الهاتف الذكي، الحاسوب وكل الأجهزة الإلكترونية المزودة بشبكة الإنترنت، والتي تلعب دورا محوريا في إحداث التفاعل المطلوب بين الأفراد، ويعرف هذا النمط بالتفاعل الافتراضي.

2- العمليات الاجتماعية– الثقافية الرئيسية:

اهتم علماء النفس والأنثروبولوجية وعلم الاجتماع، بدراسة العمليات الاجتماعية، والتي يمكن تفيئتها إلى عمليات **معارضة Opposition** ويندرج تحتها **التنافس Competition** و**الصراع Confliet**، وإلى عمليات **التعاون Co-Operation**، ويمثل كليهما سمتان أساسيتان للتعامل الإنساني، غير أنه تجدر الإشارة أن عملية **التنشئة الاجتماعية Socialization** هي أهم تلك العمليات الاجتماعية على الإطلاق، وهي التي تسبقها جميعا في إكساب الطفل، خصائص مجتمعه الثقافية.

2-1- التنشئة الاجتماعية:

يمكن تعريف **التنشئة الاجتماعية Socialization** على أنها "علاقة تفاعلية بواسطتها يتعلم الفرد المتطلبات الاجتماعية والثقافية، التي تجعل منه عضوا فعالا في المجتمع". كما تعنى عملية التنشئة الاجتماعية بنقل التراث الثقافي للمجتمع إلى الفرد الجديد (الطفل)، حيث يضم التراث الثقافي مجمل العادات والأفكار والاتجاهات والقيم.. إلخ، التي تكون معروفة في المجتمع الذي ينتمي إليه، وبذلك يرتقي الفرد الجديد من مجرد كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي ذو ثقافة، أو بالأحرى يكتسب الفرد الجديد بوساطة هذه العملية اجتماعيته

وثقافة مجتمعه بكل خصائصها. وتحدث التنشئة الاجتماعية في السنوات المبكرة من حياة الفرد، وتستمر معه إلى آخر أيامه.

2-1-1- خصائص التنشئة الاجتماعية:

تختص عملية التنشئة الاجتماعية بما يلي:

- أنها عملية تعلم اجتماعي، حيث يتعلم الفرد من خلال التفاعل الاجتماعي، المعايير والأدوار والاتجاهات.
- أنها عملية نمو، إذ يتحول الفرد بها من التمركز حول الذات إلى الأنسنة، وبالتالي إلى فرد ناضج، يدرك معنى المسؤولية الاجتماعية.
- أنها عملية مستمرة، ذات مراحل متسلسلة من الطفولة إلى المراهقة فالرشد ثم الهرم والشيخوخة، ولكل مرحلة منها خصائصها واحتياجاتها..
- أنها عملية ديناميكية، فعن طريق التفاعل والتغير ترسخ عمليات الأخذ والعطاء (تبادل الخدمات والمصالح مثلا)، التي تكون الشخصية الناضجة.
- إنها عملية معقدة ومتشابكة، متعددة المهام والأساليب، لأجل تحقيق أهداف محددة (أهداف فردية أو جماعية).

2-1-2- مؤسسات التنشئة الاجتماعية:

تمارس عملية التنشئة الاجتماعية داخل العديد من مؤسسات المجتمع، وفيما يلي سنتناول أهمها –على الإطلاق– الأسرة والمدرسة.

- **الأسرة:**

الأسرة هي الوحدة الأولى من مؤسسات التنشئة الاجتماعية، فهي تساعد على حفظ النوع البشري، وتؤمن للأفراد شروط الاستمرار في الحياة، وتمنحهم الاستمرار المعنوي، ولأنها تخضع إلى المحددات الثقافية، وتتطور عبر التاريخ، بفعل تعاقب الديانات والحضارات وتغير الأعراف والقوانين والتعاليم تباعا، فإنها تتمظهر في أشكال متعددة، منها: الأسرة الأمومية، الأسرة الممتدة، الأسرة النووية..إلخ. وعليه، فإن وظائف الأسرة تختلف حسب الزمان والمكان، والنمط الثقافي السائد، غير أن ثمة وظائف مشتركة بين كل أشكال الأسر، تتلخص فيما يلي:

- **الوظيفة الجسمية:** الوظيفة الجنسية هي الوظيفة الرئيسة للأسرة، وبخاصة في الأشهر الأولى من حياة الطفل، حيث توفر له الرعاية والعناية، الغذاء والملبس والتدفئة والراحة، وعليه فإن سلامة الطفل مرهونة بتوفير الأسرة الحد الأدنى من هذه الرعاية، والعناية الصحية اللازمة، وللجانب المادي دور كبير في تحقيق هذه الوظيفة.

- **الوظيفة الجنسية:** تشبع الأسرة الغريزة الجنسية بالشكل المشروع للزوجين، كما تتيح الأسرة للطفل اكتساب معارفه حول الثقافة الجنسية، وننوه في هذا السياق أن هذه المسألة ليست بالمتماثلة بين كل الأسر، وهذا راجع للاختلاف الثقافي والأخلاقي والتربوي بين المجتمعات.
- **الوظيفة الدينية والأخلاقية:** لقد دمجنا الوظيفتين الدينية والأخلاقية ضمن وظيفة واحدة كونها صنوان، وهما يتكاملان معا في تهذيب وصقل وتعديل سلوك الأبناء بما يتوافق والديانة والنمط الثقافي السائد في المجتمع الكبير.
- **الوظيفة العقلية والإبداعية:** تسهم الأسرة بشكل كبير في تنمية مدارك الطفل، حيث يبدأ في اكتشاف العالم من حوله من خلال احتكاكه وتواصله وأفراد أسرته، فيشبع بذلك فضوله وينمي معارفه ومفاهيمه عن العالم المحيط به، كما تكسب الأسرة الطفل الحس الإبداعي والجمالي، وذلك بوساطة التفاعل المستمر وموضوعات الحياة اليومية داخل أسرته.
- **الوظيفة الاجتماعية:** تمكن الأسرة الطفل من تكوين علاقات اجتماعية متعددة داخل أسرته (علاقات البنوة، الخؤولة، العمومة وحتى الصداقة..)، وذلك عن طريق التفاعل الاجتماعي وأفراد أسرته، حيث يتعلم المشاركة في بعض الأنشطة الاجتماعية، بالإضافة إلى تعلم العادات والتقاليد والآداب المختلفة، ومعاني العلاقات الاجتماعية الأخرى، كمعنى الملكية الفردية والمشتركة، ويدرك الحقوق والواجبات، ومعاني احترام الآخرين ومعاملتهم، ومن ثم فإن الأسرة تتيح للطفل انتماءه الاجتماعي لعالمه الصغير والمتمثل في الأسرة، ثم عالمه الكبير والمتمثل في المجتمع.

- **المدرسة:**

المدرسة هي "مؤسسة اجتماعية من مؤسسات التنشئة الاجتماعية، دورها تكوين الأفراد من مختلف النواحي في إطار منظم وفق مبادئ الضبط الاجتماعي". يعرفها **إميل دور كايم E. Durkheim** على أنها "تعبير امتيازي للمجتمع الذي يوليها بأن تنقل إلى الأطفال قيما ثقافية وأخلاقية واجتماعية، يعتبرها ضرورية لتشكيل الراشد، وإدماجه في بيئته ووسطه". لقد أنشأ المجتمع المدرسة، لأجل القيام بتنشئة الأفراد، وفق مناهج تربوية مخطط لها، لا تتعارض وثقافة المجتمع وسياسته وديانته، ولكنها مؤسسة متخصصة في تعديل وتنقية وتطهير التراث الثقافي من بعض العادات الجمعية والأعراف والمعتقدات البالية، التي قد تنقلها الأسرة بشكل عفوي غير مقصود للنشء، حيث يمكن أن تعرقل مسار التنمية، وتحول بذلك دون تقدم المجتمع ككل.

هذا، وتتكون المدرسة من:

- **الأفراد:** تشمل هذه الفئة الاجتماعية التلاميذ والمربون والإداريون والعمال..، بما لهم من خصائص وأهداف وحاجات ومؤهلات واستعدادات.

- **العلاقات الاجتماعية**
- **الأبنية والأساليب الفنية:** تشمل الأقسام والإدارة والساحة وقاعات الرياضة والمرافق الأخرى.
- **المناهج:** تضم الأهداف التربوية والمبادئ والبرامج التعليمية والأساليب والوسائل.
- **المراكز والأدوار:** لكل من الأفراد الذين ينتمون إلى المدرسة مراكز أو مناصب معينة، تفرض عليهم القيام بأدوار محددة كالتعليم بالنسبة للمعلم، والتسيير بالنسبة للمدير، والحراسة بالنسبة للحارس.
- **السلطة**
- **النظام:** يضم قواعد الضبط داخل المؤسسة
- **الرموز والسمات:** وتشل اسم المدرسة، المستويات الدراسية، اللباس الموحد للتلاميذ أو المآزر ..إلخ

أما عن وظائف المدرسة فيمكن إدراجها فيما يلي:

- **الوظيفة التعليمية:** تمثل الوظيفة الرئيسة للمدرسة، وتتمحور هذه الوظيفة أساسا حول: إكساب التلاميذ الأسلوب العلمي في التفكير والبحث والدراسة (المنهج العلمي)، تزويد التلاميذ بالمعارف الصحيحة أو العلمية، كما تتيح لهم أمكانية تعلم المواد التعليمية القاعدية، مثل: القراءة، الكتابة الحساب والتعبير.
- **الوظيفة النفسية:** تلعب المدرسة دورا مهما في تحقيق الإشباع النفسي للتلاميذ، حيث تشبع المدرسة حاجة التلاميذ إلى الانتماء، وذلك بتمكينهم من تكوين علاقات اجتماعية كعلاقة الزمالة أو الصداقة والرفقة. بالإضافة إلى إشباع حاجة تحقيق الذات، عبر التنافس على المراتب الأولى من خلال الأنشطة العلمية والتربوية والثقافية التي توفرها لهم. وأكثر من ذلك تشبع المدرسة حاجة التلاميذ إلى الترويح وذلك من خلال النشاطات الرياضية والترفيهية.
- **الوظيفة الاقتصادية:** تقتصد المدرسة الوقت والجهد والمال، من خلال العملية التربوية التعليمية التي تقوم بها. كما تسهم المدرسة في تحقيق التكافل الاقتصادي، إذ تقوم بمساعدة التلاميذ المعوزين، وذلك عن طريق تزويدهم بالأدوات المدرسية والمحفظات والمآزر..إلخ.
- **الوظيفة الاجتماعية:** تقوم المدرسة من خلال هذه الوظيفة، بتعريف التلاميذ على مجتمعهم الكبير الذي ينتمون إليه، إذ تقدم لهم تعريفا واضحا يشمل تكوينه (تاريخه)، نظمه، قوانينه والمشكلات والعوامل التي تؤثر فيه.
- **الوظيفة التربوية:** تعمل المدرسة بالموازاة مع الأسرة على العناية بالتلاميذ، من النواحي: الجسمية، العقلية، النفسية والروحية، فهي تمارس والحال هذه تنشئة اجتماعية مقصودة،

وذلك بهدف إعادة توجيههم، تشكيل اتجاهاتهم، غرس القيم المرغوبة، والتأثير في سلوكياتهم بطريقة مدروسة ووفق أسس منهجية.

2-2- العمليات المعارضة:

بالرغم من أن المعارضة والتعاون يظهران في كل مجتمع، إلا أن شكل واتجاه كل منهما قد يتشكل ويختلف بثقافة وظروف الزمان والمكان. ويمكن تعريف **المعارضة Opposition** على أنها نضال ضد آخر أو آخرين لتحقيق هدف أو قيمة. ومن أجل التحليل، فإن المعارضة يمكن أن تقسم إلى شكلين أساسيين: **التنافس والصراع**. وتعد **المنافسة Competition** أقل أشكال المعارضة عنفا، يناضل فيها فرد أو أكثر (جماعة) لأجل تحقيق هدف أو أهداف معينة، ويكون محور الاهتمام للفرد أو الجماعة المتنافسة هو تحقيق المكافأة، أكثر من التنافس في حد ذاته. أما في عملية **الصراع Confliet**، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، فهي محاولة إحباط أو تدمير الخصم من أجل ضمان الهدف المنشود أو المكافأة. وللعلم يمكن للمنافسة أن تنقلب -بالتدريج- إلى صراع. لكن تجدر الإشارة أن الصراع هو عملية مؤقتة ، في حين أن المنافسة غالبا ما تكون لاشعورية، وبطريقة أو بأخرى تظل مستمرة.

2-3- عمليات التعاون:

أشرنا فيما سبق، أن التعاون والمعارضة هما سمتان أساسيتان للتعامل الإنساني. وكما يبدو أن هذين النمطين –التعاون والمعارضة- يشكلان الأسس لكل العمليات الاجتماعية الأخرى، وهو ما يؤكد كذلك **ألبيون سمول Albion W. Small** أن النضال والتعاون عمليتان متلازمتان في كل موقف، ولهذا إما أن تكون المصالح متفقة أو متعارضة. ويميل البعض إلى اعتبار المعارضة أساسا للتفاعل الإنساني، فيما يميل البعض الآخر إلى اعتبار التعاون أساسا لكل العمليات الاجتماعية.

2-3-1- التعاون:

يستمد علم الاجتماع تحديده لمفهوم التعاون، من بعض إسهامات علماء الطبيعية، في عالم النبات والحيوان، إذ يشير التعاون إلى عملية التبادل، التي تنمو عندما تعيش أنواع معينة في مكان معين، كذلك يشير المفهوم إلى التعاون المتبادل أو المساعدة بين أعضاء النوع نفسه. ويعد **كروبتكين P. A. Kropotkin** أول من أكد على مكانة التعاون المتبادل كعملية هامة في الطبيعة، وفي المجتمع الإنساني.

ويتخذ شكل التعاون خطوات متتالية، نوردها فيما يلي:

- أن يكون موجها بدافعية عالية، نحو تحقيق هدف مشترك بين الجميع.
- يجب أن يكتسب هؤلاء الأفراد نوعا من المعرفة النافعة، لتحقيق هذا النشاط أو الهدف المنشود، ولهذا يعتبر التعليم أمرا أساسيا من متطلبات التعاون.
- يجب أن ينمي هؤلاء الأفراد اتجاهات إيجابية، نحو مشاركة العمل، والمكافآت المتوقعة من انجازه.

- يجب أن يتعلم هؤلاء الأفراد المهارات الضرورية، حتى يتحقق لهذا التعاون النجاح.

ومثلما هو الحال بالنسبة للمعارضة، فإن التعاون يظهر داخل وخارج الجماعة، وبالرغم من أن الصراع قد ينشأ داخل الجماعة، إلا أن الجماعة لا يمكن أن تستمر دون أن يكون هنالك قدر من التعاون بين أفرادها. إن هذا النوع من التعاون، يبدو واضحا عندما تواجه الجماعة، نوعا من المعارضة من أفراد أو جماعة أخرى خارجة عنها، ففي هذه الحالة ينمو شعور بالهوية الجمعية، ويوجه نحو الجماعة المعارضة.

ولاشك أن الأسرة هي المكان الأول، الذي يتعلم فيه الفرد أساليب التعاون وحب الآخرين، ولعل الجماعات الثانوية الأخرى، مثل: جماعات اللعب والأصدقاء والدراسة..، كلها تدعو إلى تكوين أشكال متعددة من التعاون.

2-3-2- التمايز:

يعتبر **التمايز Differentiation** أحد العمليات الكبرى في الحياة الاجتماعية، ويظهر التمايز عندما تكون هنالك وظائف معينة نابعة من الاختلافات الخاصة بالعمر، الجنس، المهنة.. إلخ، ولكن يلاحظ أن مصدر التمايز يكمن في المعارضة والتعاون. فالأعمال التي يقوم بها الفرد –على سبيل المثال– تختلف حسب فئات العمر، كذلك السلوك الجنسي يختلف حسب النوع، حيث يتميز الذكر بالعدوانية والأنثى بالخضوع والاستسلام. كما يظهر المجتمع الإنساني تنوعا كبيرا في السلوك، خاصة فيما يتعلق بالأدوار والمكانة، ومرد ذلك إلى اختلافات العمر والنوع، وكذا المستوى التعليمي.

ويظهر التمايز الاجتماعي بقوة، في المجتمعات التي عرفت تقدما كبيرا في تقسيم العمل، والتخصص في مجالات مهنية معينة، فتبرز بذلك جماعات مهنية متعددة ومتمايزة، وتعددها وتميزها قد يدفع إلى التنافس أو الصراع أو التعاون. كما يؤدي وجود التمايز الاجتماعي من حيث امتلاكها لرؤوس المال المادية والاقتصادية والثقافية (الشهادات العلمية المحصل عليها والتحكم في اللغات الأجنبية..)..، إلى ظهور الفوارق الاجتماعية وحتى الطبقية في المجتمع.

خلاصة:

تتمحور الحياة الاجتماعية لكل المجتمعات حول العمليات الاجتماعية –الثقافية، وهي إن تعددت وتنوعت فإنها تصنف دائما عمليات المعارضة وعمليات التعاون، غير أن كلا العمليتان تتحكم في تكوينهما عملية التنشئة الاجتماعية التي تعمل على تقوية إو إضعاف " العمليتين وذلك داخل أبرز مؤسساتها "الأسرة والمدرسة.